على المتحدر

ابراهيم المصرى

« من عنايات الى زوجها صفوت »

عزيزى صفوت

« أنا لم أشأ ان أهدم حياتك ولكنى أريد أن تعلم علم اليقين انك انت الذى هدمتها بنفسك ... لا تضطرب مما سأقوله لك ، ولا تدع الغضب يتمكن منك والسخط يستولى عليك... ولكن هل يمكن لمثلك أن يغضب أو يسخط أو يثور ؟ ... ذلك هو محور المسألة. انت رجل لا تحفل بشىء ، ولا تتأثر بشىء ، ولا تقيم وزنا لأى شىء .. كل ما تنشده فى هذه الدنيا هو راحة البال ، واطمئنان النفس ، وفراغ القلب ، والضحك ، والتنكيت ، و « الفرفشة » . انت لا تؤمن الا بنعيم مستمد من الصغائر ، وبسعادة نابعة من كل ما هو مادى واقعى رخيص .. هذا انت وتلك هى صورة نفسك . ولكنى ما بدأت خطابى بالتحدث اليك عن هذه الصورة الظاهرية منك ، الا لأتحدث عن سر روحك ، وجوهر طبيعتك ، ورذيلة حياتك ، تلك الرذيلة الشائنة البغيضة التى عصفت آخر الامر بنا ، وقوضت صرح بيتنا ، وألقت بى أنا فى تيار مأساة مروعة كادت تفقدنى سلطانى على نفسى ، وتقضى القضاء المبرم على ...

لقد تزوجتنى ياصفوت ، وانت تعلم انى كنت مدرسة ملحوظة المكانة فى أوساط التعليم ، وانى كنت فتاة رقيقة الحس ، مشبوبة العواطف ، مولعة بالفكر ، كلفة بالادب وسائر الفنون. ولقد اخترتنى ، لهذه الخلال نفسها ، أو للمفاخرة بها ، لا أدرى ... ولكنك على كل حال قدرت فضائلى ، وأقبلت على اقبال رجل معجب ذاهل مفتون ، يتمنى أن يشاطرنى عواطفى ، ويقاسمنى ميولى ونزعاتى ، ويبادلنى الحياة المعنوية التى كنت أنزع اليها والتى كانت هى غاية فكرى وقبلة خيالى ...

هكذا رأيتك فى مبدأ الامر ، وهكذا تصورتك . اعتقدت انك مخلص فى اعجابك ، صريح فى اطرائك ، صادق فى عزمك على أن تعيش معى وفق ميولى وعلى نفس المستوى المعنوى الذى كنت تعلم انى أحبه ، وأوثره ، وانشد العيش فيه ...

والحق الذى يجب أن أعترف به ، هو انك فى العام الاول من زواجنا ، حاولت أن تشعر ... حاولت أن تفهم ... حاولت أن تتغير ... أردت أن تسمو بنفسك ولو قليلا ... أردت أن تهذب من فكرك بالمطالعة ، وتهذب من عاداتك بالملاحظة ، وتهذب من أنانية أهوائك وطباعك بالرقة والدماثة ، ورياضة النفس أيضا على التضحية ..

ولكنك فى الواقع كنت تمثل . كنت تتكلف وتتصنع . كنت تقاوم ذاتك ، وتكافح طبعك ، وتستر حقيقة أخلاقك، وتود من أعماق نفسك أن تمزق ذلك القناع الذى اسدلته بيدك على وجهك .

وشيئا فشيئا ، وعلى مر الزمن ، مزقت القناع بالفعل ، ثم أطلقت لنفسك عنانها ، وأرسلتها على سجيتها، وبرزت فجأة رجلا قاسيا فظا غليظا لا يمت بأية صلة الى ذلك الرجل المهذب الممتاز الرقيق الذى ارتضيته أنا زوجا لى ...

تبدل كل شىء فيك بغتة ، وعدت الى طبيعتك ، طبيعة الانسان الفطرى البدائى المتحلل من كل ضابط . أيقظت غرائزك من سباتها ، ثم ارتميت فى غمرتها ، أسعد ما تكون بالتمرغ فيها، واتخاذها وسيلة للزهو والاستهتار والتحدى .

وكانت غرائزك هى المجون الوضيع، والكسل البغيض ، والشراهة المنفرة ، والبخل ... البخل الشائن الحقير المزرى .

كنت ما تكاد تدخل بيتك عائدا من الديوان حتى تطلب الطعام وانت تجأر . فاذا ما جئتك به ، ارتميت عليه كوحش كاسر ، وطفقت تأكل بيديك وعينيك وقدميك وكل عضو فيك حتى تتخم . وبعد فراغك من تناول الطعام كنت لا تكلف نفسك عناء الجلوس الى ولو لحظة ، بل تسرع وتتناول شيئا من كربونات الصودا ، ثم تدخل مخدعك ، وتنام ... تنام حتى الساعة السادسة ثم تستيقظ ... تستيقظ ونفس التهم متمكن منك ، ونفس الشراهة مستولية عليك . فترسل فى طلب جارك وصديقك الوجيه العاطل احسان بك، وتجلس فى الشرفة معه ، مرتديا جلابيتك المخططة التى أبيت أن تستعيض عنها بالبيجاما ، ثم تنادى بأعلى صوتك كل بائع متجول ، و « تفاصله » وتساومه ، وتشترى منه « الخس » أو « الملانة » ، أو البرتقال أو « اليوسف افندى » أو الجزر ، ثم تميل على صاحبك وترشقه بـ «النكت» المكشوفة البذيئة ، ثم تقهقه قهقهة مدوية والطعام مايزال يملأ شدقيك ، ثم تلقى بأعواد الخس أو أعواد الملانة أو قشر البرتقال على أرض الشرفة النظيفة التى غسلتها أنا ومسحتها بيدى فى الصباح !...

ولقد كنت أحاول أن أغفر لك شراهتك ، وأعتبرها شبه تسلية تساعدك على تغذية روح المرح المتأصلة فيك . ولكنك كنت تمعن فيها امعان بعض النسوة البلديات المتلهفات على السمنة بأى ثمن ... أجل . كنت مثلهن تماما . لا تتهافت على الطعام فقط بل تتهالك أيضا على « المفتأة » و «الحلبة» والكتيرة» وتأبى الا أن تسمن وتترهل وتستكرش وتصبح كباشوات العهد القديم ، تتباطأ فى حركتك ، وتتئد فى اشاراتك ، وتتهادى فى مشيتك ، وتتخطر وتتعثر تعثر الوجاهة والعز والدلال .

ولقد كان يثيرنى منك فوق ماتقدم، ولعك الوحشى بأكل اللحوم ، ومعرفتك الراسخة بأنواعها ، ودقتك العجيبة فى اختيارها ، واتجاهك فى معظم أمسيات الشتاء الى قتل وقتك باستحضار ذلك القرطاس الكبير المملوء بالفحم ، ورص الفحم فى الموقد ، واشعال النار فيه ، وخنق أهل البيت بدخانه ، كى تشوى

عليه شرائح اللحم ثم تلتهمهـا وهى ساخنة طرية لذيذة تنضح بالدهن ...

تلك كانت هوايتـك المفضلة التى طالما زجرتك عليها ، ونهيتك عنهـا ، وحاولت أن أحررك منهـا ، حرصا على صحتك وكرامتك ولكن دون جدوى .

بيد ان شراهتك كانت لا تقلقنى ، وميلك الى المجـون والكسـل كان لا يخيفنى ، ونزعتك الى الاسـتهتار وعـدم الاكتراث كانت لا تذهب بهدوء أعصابى .

كل هـذه الاهواء كانت تبعث فى نفسى على الرغم منى شـعورا بالتقزز فقط ، تخالطه الحسرة واللوعة والندم. أما الرذيلة التى كانت حقـا تثيرنى ، وتجثم على صدرى وتملأ قلبى بالكراهية والخوف والحقد ، فهى بخلك الغريب، بخلك الخـارق ، بخلك الذكى اللئيم الخبيث ، الذى جعـل من ذهنك آلة «حاسبة» عجيبة ، آلة تكيل بكيلين ، وتنزع نزعتين ، فتسخو على نفسهـا مختـارة ، بينما هى ، فى منـاورات مدهشـة ، تذل الآخرين ، وتحرمهم ، وتقتر عليهم أشد وأبلغ وأبشع تقتير.

هو ذاك . الطعـام الشـهى لك ، والكساء الأنيـق لك ، وتحقيق مختلف الرغبات والنزوات طوع مزاجك . وأنا ... أنا زوجتك ، زوجة صفوت أفندى، أستغفر الله ، بل زوجة صفـوت بك الموظف فى الدرجة الرابعة ، فيجب ألا أكون امرأة ، ويجب ألا اتجمل ، ويجب ألا أفصل فسـتانا على « الموضة » أو أشترى زجاجة كولونيا ، أو علبة بودرة، أو اصبغـا من الروج ، أو حقـا من الكريم ... كل هذه الاشياء كانت فى نظرك مساخر وترهات وكماليات يجب أن أحتقرها أنا وأستغنى عنها ، وأعرف كيف أكون امرأة جميلة أنيقة بدونها. أما طفلتك ، بنتك ، بنتك الوحيدة ، فلا يجوز أن تصرخ ، ولا يجـوز أن تبـكى ، ولا يجوز أن تمرض ، فتعكر مزاجك ، وتقلق راحتك ، وتجلب اليك الوساوس والهمـوم . وأما اذا حدث وأصيبت بأى داء فواجبى أنا أيضا ، أنا وحدى ، أن أعنى بها ، وأن أتجنب جهدى عرضها على طبيب ، وأن أحملها وأطوف بها على المستوصفات الشعبية، أو المستشفيات المجانية ، أسرق لهـا العلاج والدواء من الفقراء والمساكين.. والويل لى ثـم الويل ان حاولت أن أضللك ، وأحتال عليك ، وأغالطك فى الحساب ، وأخفى عنك قرشـا واحدا أنفقه على ابنتى ، أو على زينتى ، أو على بيتى . انك حينئذ تفتـح عينيـك ، وترهف أذنيـك ، وتنقلب الى صراف مجرب حذر يقظ ، ثم تبدأ بمحاسبتى على كل قرش بل كل مليم وانت تبتسم ابتسامة فاترة ناعسة ، ملؤهـا الدهـاء والخبث ، والرغبة فى الاحراج والاتهام والاذلال ...

هذا البخل الوضيع ، هـذا البخل النابع من الأنانية ، والصادر عن غلظة العواطف ، وجفاف المشاعر ، وجشـع النفس ، وفراغ القلب والروح ، هذا البخل الذى كان يمكن لك من التمادى فى الشراهة ، والتمتـع بالانـاقة ، والاغراق فى الكسل والمجـون وعدم الاكتراث على حسـاب امرأتك وبنتك وبيتك ، هذا البخل ولد فيك على مر الايام ، وانت لا تدرى ، ولعـا مضاعفا بالجشع ، وشغفا جنونيا بالمال، وتكالبا مسعورا على المصلحة ، وشذوذا مخيفا فى الميول والاهواء .

وهـذا الشذوذ هو الذى ابتـلانى بالكارثة التى أرزح تحتها اليوم ، بل هو الذى احتفر الهوة تحت قدمى ، وزين لى بالرغم من صبرى وطول احتمالى أن أثور ثـورة جارفة على حظى وأن أكتب اليك هذه الرسـالة ، بعد أن غادرت بيتك أنا وابنتى ، ولجأت مذعورة مخبلة الى منزل أبى !... فاسمع الآن ... اسمع الحقيقة كلها... الحقيقة المروعة التى صنعتها أنت ... وعسـاك أن تنفعل وتضطرب وتراجع نفسك قبـل فوات الوقت .

لقد عشنا معا أربعة أعوام ، ولكننا لم نعش فى بيتنا بمفردنا . كان معنا شقيقك «سامح» منذ أول يوم تزوجنا فيه . لم أشأ فى مبدأ الامر أن أعيش فى بيت يلازمنى فيه رجـل غريب ، وكدت أرفض هـذا الزواج . ولكننى بعد أن رأيت سامح ، وتعرفت اليه ، وقص على قصـته ، وعلمت انه كان متزوجا منذ عشر سنوات بامرأة أحبها الى حد العبادة ، ثم طلقها لسوء سلوكها وآلى على نفسـه أن يعيش عزبا ، وأن ينصرف عن النسـاء ، وألا يقدم على الزواج مرة ثانية ، بعد أن علمت كل هذا ولمست فى شخصية سامح حسرة عميقة على امرأته، وحنينا خفيا الى الايام والاعوام التى أمضاها معها ، تأثرت له، واطمأنت نفسى اليه ، لا سيما وانه كان رجلا دمث الطبع ، لين الجانب ، رقيقا مهذبا ، يعرف كيف يحترم نفسه كما يعرف كيف يحترم الآخرين .

وهكذا رضيت بالحيـاة معكما تحت سـقف واحد . رضـيت وأنا متنبهة متيقظة ، أرقب كل حركة تصدر عنى، وكل كلمة أو اشارة تبدر منى، وأحاول ما استطعت أن أكون مع سامح بسيطة فى ظرف ، متحفظة فى كياسة ، رقيقة فى عزة وأدب واحتشام .

وكان سـامح يحترمنى ويقـدرنى قدرى ، ويعاملنى معاملة الاخت، متجنبا كل مباسطة معى ، وكل خلوة تجمعه بى ، وكل حديث خاص يرفع الـكلفة بينه وبينى . وكنت أنا مستريحة الى هذا الضرب من الحياة ، اغبط نفسى على ما حالفنى من هدوء وتوفيق ، ولاأخطر على بالى لحظة واحدة ان ازداد تقربا من سامح أو اقتحم شخصيته ، أو أجاوز فى معاملته حد الود الأخوى الصريح .

ولقد أحس هو منى ذلك التحفظ . فازداد احتراما لى ، وتشبثا بالجمـود المؤدب المتباعد الذى كان قد فرضه على كل تصرفاته معى .

ولبثنا على هذه الحـال طوال تلك السـنوات الاربع . ثم تغير فجأة كل شىء ... كنت أنا مثال التحفظ وكان سامح مثال الادب بل مثال الجمود . ولكن هذا الجمود الواقى ، هذا الجمود العـاقل المتزن ، لم يعجبك انت ... انـت زوجى ... فشرعت تتبـرم وتتململ . فاستغربت أنا تحولك، ولم أدرك علة اسـتيائك ، ولم أستطع أن أتبين حقيقة نواياك ...

وفى ذات يوم ، فى ذات يوم تذكره ولا شك تماما ، دعوتنى الى مخدعنا ، ثم أوصدت بابه ، ثم انحنيت على فجأة، وقلت لى ولمعة البخل تومض فى وجهك، ولهفـة الجشع وحب المـال تتقد فى عينيك ، قلت لى ان أخاك سامح موظف ممتاز ، وانه يتقاضى اليوم من الشركة التى يعمل بها مرتبا كبيرا، وانه لايعول زوجة ولا أولادا ، وانه قـد ادخر فى

العشر سنوات الاخيرة التى أمضيناها عزبا مبلغا يربى على الثلاثة آلاف جنيه. فتطلعت اليك أنا ولم أفهم ... لم أتبين ... فزجرتنى وصحت بى وعيناك تبرقان ، ان واجب الحكمة والعقل يقضى علينا بأن نربح سامح لأنفسنا ، وندمجه فى حياتنا جهدنا ، ونرفه عليه قدر استطاعتنا ، كى يخرج من انكماشه وجموده ، فلا يحس مرارة الوحدة ، ولا يشعر بالحنين الى الحياة العائلية ، ولا يفكر رغم تعلقه بالعزوبة، فى الاقدام يوما على زواج جديد . وهكذا يبقى جهاده لنا ، وخيره لنا ، وماله لنا ولأولادنا ...

هذا ما قلته لى انت بالحرف الواحد ثم ضممتنى الى صدرك ، وهمست فى اذنى ان سامح بدأ يتردد على أسرة صديقنا المحامى الاستاذ صلاح ، وانه يعجب بابنته الجميلة «سهام» وانهم قد فاتحوه بشأن الزواج منها ، وانه حائر محجم ، يشعر بميل الى الفتاة ولكنه يتردد فى التضحية بحريته وتكبيل نفسه بقيد أصبح لايألفه ... فتفرست أنا فيك دهشة وسألتك مزيدا من الافصاح . فقلت لى بلهجة آمرة جافية، انه يجب على أن أتقرب جهدى الى سامح وأن احاسنه وأسايره ، وأجامله واتملقه ، واجتذبه واستميله ، وابذل قصارای فى التغلب على تحفظه وجموده، بحيث يركن لنا، ويطمئن الينا، ويحس انه واحد منا ، فلا تتمكن منه الوحشة والجهامة ، ولا تدفعه مرارة الوحدة الى التفكير يوما فى الزواج بسهام أو بغيرها ...

وكنت تتكلم ، وبصرك يلمع ، وصوتك يتلهف ، وانفاسك تغلى ، وبدنك يرتعش ، وانت تتصور مآل أخيك وقد أصبح فى النهاية لكوحدك. وكنت أنا أنظر اليك ، وأتأملك ، وأعدك بان أذعن لأمرك ، وملء نفسى الشعور بالكبر والأنفة والتقزز والضجر .

أجل . لم اكترث لتدبيرك . لم اعلق عليه اهمية كبيرة . ولكنى مع هذا نفذته لأرضيك . اقبلت على سامح بوجه اوفر بشاشة واكثر استجابة واقل تحفظا . بيد انى لم استطع مغالبة طبعى والتحلل دفعة واحدة من مختلف ضوابط العرف والعادة التى كانت تسيطر على تصرفاتى وميولى . فاستأت انت وتذمرت ، وانتهرتنى فى عنف ، ثم رميتنى بضيق الذهن ، وقصر النظر ، وقلة الحيلة ، فكنت انت ، انت الذى حفزتنى وشجعتنى ...

نعم شجعتنى . فمضيت أنا طوعا لأمرك أستدرج سامح واحاوره ، وأروضه وأدلله ، وأترضاه وأجتذبه . فبهت الرجل لتحولى ، وانكمش وتراجع ، وازداد جمودا ، بل ازداد انطواء وتباعدا وتجهما . فاحسست أنا ، أحسست لأول مرة فى حياتى ، بغريزة الأنثى تجيش وتصطخب فى صدرى ... كبر على أن يتحدانى رجل ، ويروغ منى ، ويثبت أمامى ، ويستعصى على . فلم الجأ الى التلطف والتودد فقط كما نصحتنى ، بل وجدتنى ألجأ ، بالرغم منى ، الى الدهاء .

فطفقت اقبل تارة على سامح ثم أعرض عنه ، أمنية بصداقتى ثم انقلب عليه ، أرضى عنه فترة ، ثم أتبرم به

وادعة فريسة الحيرة والقلق والتخبط والذهول ...

هذا الجو المضطرب المكفهر ، المتارجح بين المد والجزر ، أحدث أعمق الأثر فى نفس سامح . فخشى أن يغضبنى ، وخشى أن يثيرنى ، وخشى ان هو اسرف فى جموده أن اسرف أنا ايضا فى اعراضى ، فتستغرب انت أمرنا ، وترتاب فينا ، وتتشكك فى براءة ونزاهة صداقتنا . فلم يستطع سامح ، بعد جهد الا ان يلين لى مكرها ، ويقبل على مترددا ، ويبادلنى فى الوقت بعد الآخر تبسطا بتبسط ، وود بود ...

وكان يدرك انى صادقة فى ودادى . وكان تاعسا ومحروما لم يألف متعة التجاوب مع امراة منذ سنين . فظل فترة طويلة يعاند ويكابر ، ويتمنع ويتحفظ ، تدفعه الرغبة ويمنعه الخجل ، حتى استمرأ فى النهاية حلاوة الألفة ، وعذوبة التقلب فى جو المراة . فطأطأ الراس صاغرا ، ولان تماما واستسلم وخضع ...

وكنت انت سعيدا بهذا التبدل الفجائى الذى اردته واغريتنى به .

كنت من فرط ارتياحك وابتهاجك تمعن فى هوايتك المفضلة ، فتقيم سهرات « شواء » صاخبة ، وتلتهم شرائح اللحم وانت تنشر النكت الجريئة البذيئة ، وتضحك وتغنى وتكاد ترقص ... لم ارك ابدا سعيدا كما رأيتك فى تلك الأيام . كنت ما تفتأ تقبلنى ، وتهنئنى ، وتهتف فى اذنى انى فى الحق امراة وفى الحق انثى !...

وشرعنا نعيش معا أنا وأنت وسامح كاسرة متفاهمة متآلفة .

بدانا نسهر معا ، ونلعب الورق معا ، ونتبرم بزيارة الغريب ونؤثر ان نبقى فى البيت وحدنا .

واذ ذاك ، وفى هداة لياليا الحلوة الناعمة، بدات انا اهتم اهتماما جديدا بسامح واتامله واتفرس فيه ...

كان رجلا شامخ الراس فى عزة ، وئيد الحركة فى هيبة ، ذا عينين ساهمتين تفيضان عذوبة ورقة ، ووجنتين تضطرمان نضرة وفتوة ، وشفتين دقيقتين ترتسم عليهما ابتسامة حالمة متحسرة .

هذا المزيج من الانفة والسماحة ، من الرجولة والرقة ، سكن هواجسى ، وضاعف اطمئنانى ، وحبب الى المضى فى هذه الحياة الجديدة التى شعرت انا ايضا انى احوج ما اكون اليها للترفيه عن نفسى .

ثم بدانا نخرج الى النور ونستجلى معا طلعة الدنيا . كنا نخرج الى المسارح ودور السينما ، الى الكازينات وملاهى الليل . وكنت انت تزعم تارة انك نسيت حافظة نقودك ، او تتململ اخرى لانك فى حاجة الى « الفكة » ، او تصطنع السهوم والشرود والاستغراق فى التفكير كلما كان يقتضيك واجب اللياقة أن تدفع على الأقل نصيبك ونصيب امراتك . فكان سامح هو الذى يدفع ... كان يسبقك الى الدفع حتى لا يحرجك ويصيبك فى عزة نفسك أمام زوجتك ... ولما

كنا نجلس للعشـــــاء فى احد المطاعم الكبيرة ، كنت انت تنتهز الفرصـــة ، وتطلق العنـــان لبخـــلك وطمعك وشراهتك . فتطلب لنفسك عشـــاء كاملا ، وكاسين او ثلاثة من الويسكى ، ولونين او ثلاثة من الحـــلوى . فاذا ما جاء وقت الحســـاب ، اشحت بوجهك ، ولذت بالشرود كعـــادتك ، وانت تخرج علبة سجائرك فى حرص، وترمق اخاك من طـــرف خفى ، كى تتفضـــله مرة اخـــرى وهو يحاسب الجرســـون ، وتضـــن عليه حتى بسيجارة ...

وكنت انا الحظك واكاد اموت خجلا وغما . ولكنك كنت تســـتخف بى ، ولا تقيم وزنا لحنقى ، بل كنت على النقيض تغمـــزنى بعينك ، وتنبهنى بقـــدمك ، وتحثنى على التغـــافل و « الصهينة » مثلك ...

وكان سامح يدفع وينفق اكراما لى، وخجلا منى ، وابتهـــاجا بوجودى ، وتادية لواجبه كرجل مهـــذب يخـــرج فى صحبة امراة . فكنت اشعر شعورا مرا عميقا بانه ينفق من اجلى ، وانك انت تعرف ذلك يا زوجى ، تعـــرفه وتريده ، تريد ان تتخـــذ من امراتك وسيلة لاشباع غرائزك واداة لاستغلال اخيك ؟ ...

هذا الشعور ، شـــعورى باسفافك الى هذا الحد وهوان شانى عندك ، هو الذى ذهب بعقـــلى ، وافقـــدنى اتزانى ، وبدد البقيـــة البـــاقية من تحفظى ، واثارنى عليك ثورة دفعتنى بالرغم منى الى محـــاولة الثـــار منك بمضاعفة التقرب الى سامح ...

اجـــل . كنت تســـرف انت فى استغلالى ، فاسرف انا فى التودد الى سامح عساك ان تفار وترتدع وتفهم . بيد انك كنت ممعنا فى بخلك ، سادرا فى طمعك ، غافلا او متغافلا عن نتائج تصرفك . فضاق صدرى ذرعا بك ، وضاق صدرى ذرعا بحيـــاتى المظلمة الوضيعة معك . فلم اجد بدا من ان انفس عن كـــربى فى التعلق والتشبث بتلك الصداقة النـــامية الناضرة التى كانت قد بـــدات تتـــوثق بينى وبين اخيك ...

وهكذا حملنى التيار على دهش منى فاخذت بسحر سامح ... رايت فيه نقيضك وما كان يجب ان تكون عليـــه انت . رايت فيـــه ملاذى وملجئى . شعرت انى فى حاجة اليه . احسست انى اتخلص فى قربه من ربقـــة غلظتك وعبء ضجرى . كل ما كنت اتحرق عليه واتمنـــاه فيـــك وجدته فيه : رقة الطبع وادب النفس وكرم اليد وحنان الروح . فاذهلتنى نشوتى ، وافقدتنى سلطانى على عقلى ، واسلمتنى الى هذا النعيم الذى لم اكن اتوقع ان اخالسه ولو بالوهم طول عمرى ...

وكان جوا مبهما غامضا عجيبـــا ، يتـــكاثف ويتقبض تارة ، ويصـــفو وينفرج اخـــرى ، ذلك الجو الذى سبحت فيه انا وسامح ...

كان سامح لا يتكلم . كان ينظر الى فقط . وكنت ارى فى نظراته الحيرة والقلق، والارتباك والتعثر، والاستنكار والتابى ، والخجل والاغضـــاء . فكنت احدق فيه طويلا ، وارســـل اليه من ومضات عينى ولهثـــات انفاسى مايثيره

ويدعوه . فكان يطـــرق ويغمغم ، ثم يرتجف ويتخبـط ، ثم يقبـــل على مكرها ، ويظل شاخصا الى وفى عينيه رغبة محمومة يوشك ان يخالطها ، من فرط المجاهدة والكبح ، تلهف مندفع مخبول .

والهبت أنا فيه هذا التلهف ما شاء لى مكرى وخبثى وضـجرى وانتقامى وفرحى الطارىء بالسعادة النادرة التى غمرتنى . ولكنى شعرت فجأة أن هذا التلهف نفســـه يجتاحنى ، لأنى قد بدلت سامح ولأنه قد اصبح تحت تأثير اغرائى رجلا قويا مغامرا جســـورا ، لا يكفيه ان ينظر الى ويتأملنى وينعـم بصـــداقتى ، بل يريد أن يقتحمنى ويغزونى ويمتلـكنى . فانخلع قلبى ، وارتعدت . عرفت لأول مرة شـــعور الفـزع والخوف والحب ... ولكنى ما كدت أفزع واخاف حتى اضـطرب هو ايضا وملكه الذعر ...

وبتنا كلانا والذعر يطاردنا ، نهمس ولا نتكلم ، نلهث ولا نتنفس ، ننساب ولا نمشى ، نتلامح بعيـــوننا فترة ثم نسرع فنغض من ابصارنا جزعا وهولا، كأننا قد ارتكبنا الجريمة بالفعل ولم يعد فى وسعنا الا أن نرتكبها ايضا كى نخنق فيها تبكيت ضـــميرنا ، فنقر السلام فى قلبينا ونستريح ..

وكان خوفنـا من الجريمة يدفعنـا اليها ويغرينـا بها . فكنا نراها دائما أمامنا ، زاحفة الينا ، مخيمة علينا ، مطوقة افكارنا ، مندسة فى خيـالنا ، تبتســم لنا وتضـــحك منا ، وتهزا يخوفنا وجبننا ...

واستبد بنا الخوف . فاشـــتعل حبنا ،واضطرمت عواطفنا ، وضـقنا بالصبر والألم والحرمان ، واحسسنا فى لحظة من لحظات وعينـــا المتيقظ المستهول ان الهاوية المروعة تحتفر شيئا فشيئا تحت أقدامنا ...

ففى تلك الليلة ، واظنك تذكرها ، تلك الليلة المقمرة الحارة الخانقة ، وأنا راقدة فى فراشى بجوار ابنتى ، افـكر فيك يا زوجى وانتظر عودتك من الحفلة التى دعاك اليها رئيسك بمناســـبة ترقيته ، تولانى قلق عصبى غريب ، كنت اعلم أن ســامح لم يغادر البيت وانه الآن فى حجـرته بجوارى . فلم اســـتطع ان اهدا واعالج النوم . ساورتنى رعـــدات متعاقبة كرعدات الحمى . خفقت دمائى خفقـــا عنيفا ضـــاعف من عنفه وجيب قلبى . شعرت أن اعصابى تفلت منى ، وكان كيانى كله ينسلخ عنى ، بل كأن شيئا اقوى من ارادتى وعقـلى يدفعنى الى الحركة والنهوض فنهضـت . نهضت ومشيت ... مشـيت دون ان افكر لماذا نهضت ولماذا امشى ... مشيت دون ان افكر فى ابنتى ، او اســـمع غطيطها ، او القى عليها نظرة . مشيت بخطى اللص الحذر . لم اســـمع غير لهثات انفاسى ، وطنين الليل حولى ، وتدافع الدم الذى كان يهـــدر فى عـروقى ... وتقدمت واذا بى تجاه حجرة ســـامح اريد ان اقتحمهـــا وادخلها ... وما ان عـزمت ودنوت من بابهـــا وهممت بأن افتحه ، حتى تقهقرت مذعورة وصرخت .. وصرخت اذ ابصرت البـــاب يفتح من تلقـــاء نفسه ، ويبرز منه ســـامح ، ويقف أمامى وجها لوجه ! ...

كان هو أيضا يرتعش . كان فى مثل حالتى . اراد هو الآخر ان يتسلل الى حجرتى . لم يستطع هو ايضا الا أن يلبى ندائى ويسرع الى ...

ولبثنا واقفين ، يحدق كل منا الى الآخر ، ويرى كل منا عينى الآخر ، ونظراته ، وقسمات وجهه ، مندلعة متشنجة ، تملؤها الرغبة العاتية ، ويبرق فى تضاعيفها العزم الأثيم .

وتخاذلت ركبتاى واوشكت ان اتهاوى . فاسرعت واستندت الى مصراع الباب وانا ارتجف .

وكانت اشعة القمر المنصبة من النافذة ، تمتد الى سامح وتغمر وجهه الذى انسكب عليه ، برغم احتقانه وتصلبه ، فيض من حرارة الابتهال ومرارة التضرع ، وعذوبة الأسى ، روعنى وفتننى ، واشاع فى جسمى وعقلى تهافتا كتهافت الدوار ...

وحالف الصمت ذهولى ، ولفنى فى ضبابه الزافر . فتاه فكرى ، وغلى دمى ، وتوترت اعصابى برغم خوفى ، واحسست انى اتقدم ايضا ، واتامل سامح ، واوشك أن اصافح انفاسه التى كانت تهب كالنار على وجهى ... واستشعر هو ضعفى وتخاذلى . فابرقت عيناه ، وارسل صيحة مخنوقة ثم فتح ذراعيه وحاول ان يعانقنى . ولكنه ما ان دنا منى ، ما ان لمسنى ، وما ان شعرت انا بوطأة ذراعه اللينة القوية تحط فى ارادة حاسمة على كتفى ، حتى جحظت عيناى،ودبت فى مفاصلى رجفة زازلت كيانى ، واجبرت سامح على الترفق بى ، والتراجع عنى لحظة ريثما أتمالك نفسى .

وفى تلك اللحظة ، فى تلك اللحظة التى كادت تجرفنى وتطوينى وتغيبنى فى لجة لا قرار لها ، اندفق على من موجها الصاخب ضوء ساطع ، رد الى عقلى وايقظنى .

ادركت فى مثل خطف البرق ، ادركت ادراكا ثابتا فى تجبره ، دقيقا فى توعده ، فظيعا فى صورته ، انى سأشطر جسدى بين أخوين ، وابذل نفسى لشقيقين ، واعيش فى بيت واحد بين رجلين ، يفترسنى كل منهما فاصمت ، ويستريب بى من هو صاحب حق على فاكتم وامكر ، واخدع واكذب ، واناقق واضلل ، واتقلب ابدا فى جو عاصف من الاقدام والاحجام ، والحذر والتوجس ، والقلق والرعب ، والتدهور والعذاب . فتصاعدت من اعماق ذاتى شهقة استنكار دفعتها موجة اشمئزاز طاغية ، تمكنت منى ، واخذت بمخنقى ، واشاعت الخدر فى اعضائى . فخشيت ان انا قاومتها ان اعود فاقع تحت سلطان رغبتى . فلذت بها ، وتركت سيل الاشمئزاز والرعب يحملنى ، وانتفضت وصرخت :

ـ سامح ...

ثم لوحت بذراعى وقلت :

ـ يجب ان ترحل ! ...

فتطلع الى الرجل مبهوتا وجمد . فاردفت وانا اجاهد كى لا انظر اليه :

ـ غدا ... يجب أن ترحل غدا... يجب أن تغادر البيت ! ...

فاختلج اختلاجا عنيفا ، وصوب الى نظرة مسترحمة ممزقة . ولكنى لم أرحمه ولم أرحم نفسى ، بل واجهت

عينيه الناعستين ، وقلت فى صوت خفيض :

ـ ويجب ... يجب ان تتزوج سهام ! ...

فامتقع وجهه، ثم رفت أهدابه رفيفا متداركا ، وتلوت شفتاه تغالبان دمعه وتحبسان فى صدره انفجار عواطفه . ثم تداعى راسه بغتة ، وتساقطت كتفاه ، وانبعث من هيكله المحطم صوت غائر يقول :

ـ سأرحل ...

ومد ذراعه بالرغم منه ، وحاول ان يلمسنى . ولكنه ارتد مذعورا ودفع اصابعه فى شعره كمن يريد ان يستفيق. ثم صعد نفسا مستطيلا ، ورمانى بنظرة تائهة ، واستدار فجأة ودخل حجرته واوصد خلفه الباب .

واحسست انا كأنما هذا الباب قد اوصد على حياتى . فنازعتنى نفسى ان اغامر وادفعه . ولكن هذا الباب نفسه ، هذا الباب الذى اوصده سامح فى وجهى ، هو الذى اسعفنى . ومثل امامى فى صلابته الراسخة ما يجب ان تكون عليه صلابتى . فالتقطت انفاسى، وقفلت راجعة الى حجرتى ، واوصدت انا ايضا بابها على .

ولم اكد ارى ابنتى راقدة على فراشى ، تغط فى نومها الطاهر الساكن القرير ، حتى اسرعت واستلقيت على الفراش بجوارها ، وعزمت ان اطرد كل شىء وانسى . ولكنى عندما حاولت ان انام ، شعرت كأن لوعة ما تزال تشتعل فى قلبى . فارتميت على ابنتى وقبلتها. فاستيقظت الطفلة وقبلتنى . فضممتها فى عنف الى صدرى ، واحسست راحة منقذة تغمرنى . فغمضت عينى . وعجبت لنفسى كيف طوانى النوم واستغرقت فيه ...

***

وعدت انت يا صفوت من الحفلة قبيل الفجر ، مكتظا بالطعام والشراب، هاتفا بكرم رئيسك ، تتحدث فى اعجاب وانبهار عن اللحوم السمينة ، والطيور المحشوة ، والحلوى الفاخرة ، وشتى انواع المأكولات الشهية التى كانت تزين مائدة الحفلة والتى استمتعت بها دون ان تكلف نفسك قرشا واحدا . ثم ارتميت على فراشك ونمت كالقتيل..

وفى صباح اليوم التالى ، وكان يوم جمعه ، استفقت انا من نومى الخاطف مبكرة ،واسرعت فاعددت طعام الافطار والغداء . وقبل ان تصحو انت ويستيقظ سامح ، ارتديت ملابسى ، وامرت الخادم بأن تحل فى خدمة البيت محلى . ثم اصطحبت ابنتى وخرجت لزيارة شقيقتك اجلال ...

كنت على اتم اليقين من ان سامح لابد ان يبر بوعده ، ولابد ان يغادر بيتنا فى هذا اليوم . وكان فى وسعى ان اوقظه . كان فى وسعى ان ازوده منى ولو بنظرة قبل رحيله . ولكنى كنت قد استعدت قوتى وسيطرتى على نفسى . فلم اشأ ان التقى بسامح، او ان اتيح له الفرصة لتوديعى .

ولما عدت الى البيت عصرا شاهدت ما كنت اتوقعه ... رايتك انت فى حالة هياج عصبى ما رايتك عليها ابدا من قبل . كنت مهتاجا هياجا لا يثير الدهشة بقدر مايبعث على الضحك والرثاء ... رايتك تغدو وتروح فى

البيت كمعتوه ، تنتظر بفارغ الصبر عودتى ،زائغ العينين ، منتفخ الصدغين، تهدر وتزفر غيظا ، وتصدم المقاعد وتركلها ، وتنهر الخادم وتسبها ، وتصرخ وتهذى وكأنك تود ان تحطم كل شيء .

وما ان ابصرتنى حتى انفجر مرجل غضبك ، وتفاقمت ثورتك . على أنها لم تكن ثورة رجل وانما كانت ثورة طفل حانق بائس مسكين . صحت بى والدمع يكاد يطفر من عينيك ، ان سامح قد جمع ملابسه وحزم حقائبه ، وترك البيت دون سبب ... تركه الى غير عودة ... ثم زايلتك طفولة غيظك وكمدك ، وارتدت اليك قسوتك وغلظة طبعك . فأردفت وفى عينيك بريق وحشى ، ان سامح قد صارحك بانه قد سئم حياة العزوبة واعتزم ان يتزوج سهام ... ثم انقضضت على، وامسكت بى ، وصرخت فى وجهى ، وانت تهزنى هزا عنيفا وتوشك ان تضربنى ، انى أنا ... انا السبب فى رحيل سامح ، وانى لم اعرف كيف استميله ،وكيف اجتذبه ، وكيف اغريه، وكيف أحبب اليه الحياة المستمرة فى بيتنا ...

ثم مضيت تندب وتولول ، وتذكر مروءة سامح وكرمه وخيره ، وكل تلك النعم التى كان يقدمها بالأمس علينا والتى ستغدق فى الغد على الغريب...

واصابك شبه مس . فتحولت الى ثانية تسألنى كيف اهملت ، وكيف تهاونت ، واى ذنب قد ارتكبت فى حق اخيك كى يرحل عنا هكذا فجاة وبدون سبب ...

وكنت تصرخ وهوس البخل يتلهب فى عينيك ، وشهوة المال ، والتكالب عليه ، والحسرة على ضياعه ، تمسخ معالم وجهك وتفجر الزبد من شدقيك ...

وكنت أنا ،ازاء هذا المشهد المخجل، ما ازال ثابتة هادئة ،اصطنع الاستغراب والدهشة من كل ما وقع ، وافكر فى ان اجبهك بالحقيقة لأستريح . ولكنى استهولت ان اضرم فى نفسك باعترافى نار ثورة اعنف واشد . فاحتفظت بصمتى وهدوئى . فضاعف هذا الهدوء نفسه من هياجك وثورتك وامعانك فى اتهامى . فكبر على ان تكون انت السبب فى ورطتى ثم تحملنى عبء المسؤولية كلها وتظلمنى . فتطاولت عليك بالرغم منى . فضل عقلك ، ورميتنى بيمين طلاق واحدة شفعتها بطردى من بيتك . ثم دفعت الباب فى عنف وخرجت .

اما أنا فلم اتردد لحظة واحدة ، واصطحبت ابنتى ، واتجهت من فورى الى منزل ابى . وما كدت استقر هناك حتى جاش فى صدرى شعور الاستنكار والظلم ، ولم يعد فى وسعى احتمال الكتمان والصمت . كنت قد احتفظت بالصمت حرصا على بيتى ، أما وقد هدمت انت هذا البيت فى غفلة وغباء، فقد رايت انا ان من واجبى ان اتكلم، ومن واجبى ان اتهم ، ومن واجبى أن اكشف النقاب عن الصراع الذى نشب فى نفسى ، وعن العذابات المريرة التى كابدتها ، وعن الورطة القاسية التى تخبطت فيها ، لتعلم انت ، أنت يا من كنت بالأمس زوجى ، انك أنت الذى حرضتنى وأنت الذى اغريتنى ، وأنت

أوشكت ببخلك الدنيء وجشعك المرذول، أن تلوثني وتهلكني ·

لهذا حزمت امري وكتبت اليك هذه الرسالة .

فانعم النظر فيها مليا لعلك الآن تتأثر ، ولعل ضميرك يبكتك فتشعر وتقدر وتفهم . على أنك لو فهمت حقا موقفي ، وقدرت حقا مبلغ عذابي ، وآمنت بصدق كل كلمة كتبتها في هذه الرسالة ، لم يداخلك أيسر شك لافي استقامتي وشرفي ولا فياستقامة وشرف اخيك ، ثم اردت أن تثوب الى رشدك، وان تفكر في ردي يوما الى عصمتك ، فاعلم أني لن اعود اليك حتى ولو حبست عني نقودك ،وحتى ولواجبرتني على أن أعول ابنتك بنفسي . لن أعود اليك الا اذا اقلعت اولا وقبل كل شيء عن كبرى رذائلك ، وهي رذيلة البخل التي نجم عنها دمار بيتك ،والتي كادت تعصف بي أنا ايضا وتجرفني . اما اذا ابيت الا أن تمعن في بخلك ، وتوغل في طمعك ، وترتع في بحبوحة انانيتك وشراهتك وغلظتك وعدم اكتراثك ، فابق حيث انت . فلن أعدم أنا بعدك رجلا يفهمني ويقدرني ويجدد حياتي ويستطيع أن يحفظ بشهامته ورجولته، كرامته وكرامتي .

« **عنايات** »

***

وأدهشت هذه الرسالة صفوت ، وكادت تزعجه ازعاجا شديدا· ومعذلك فهو لم يستطع ، من فرط اعتداده بنفسه وثقته في امرأته وايمانه بشرفها، ان يتصور ان تلك الوقائع التي وردت في الرسالة على النحو الذي رسمته عنايات ، يمكن ان تكون قد أفضت الى أشياء نابية ومزعجة الى هذا الحد ··

كان من عادته حرصا على هدوئه ، وضنا براحة باله ، وذودا عن روح العبث والاستهتار والمرح المتأصلة فيه، كان من عادته الا يؤمن بوجود العواطف الكبيرة والانفعالات العميقة ، ولايصدق أولا يريد ان يصدق ان تلك العواطف والانفعالات يمكن ان تتطور في نفس الانسان تطورا خطيرا يؤدي الى وقوع كوارث ونكبات ·

لهذا سخر من الرسالة ، وأصر على اعتبارها قصة محشوة بالمبالغة والخيال أرادت بها امرأته التنصل من ذنبها · بيد انه احس على الرغم منه، انتفاصيل الرسالة دقيقة ، وان لهجتها حارة وصادقة · فاكربته تلك الدقة اللعينة، وهذا الصدق المزعج ، فأبى أن يتأثر بهما خشية ان يؤثرا في جو حياته الرخي المرح، كما أبى حرصا على كرامته وكبريائه ان يفكر في مناقشة امرأته حول محتويات الرسالة ، أو ان يواجه أخاه ويطلعه عليها ··

ولم يكن فيالواقع مشغولا بالرسالة، ولا بالنزاع الذي أفضى عنه امرأته ، ولا بيمين الطلاق التي افلتت منه · بل ان ما كان حقا يشغله ، وينغص عليه عيشه ، هو خوفه من ضياع المال ، هو حرصه على الدجاجة التي كانت تبيض له كل يوم ذهبا ، فانطلقيتعقب أخاه ، ويطارده ، ويضيق السبل عليه، عساه أن يقنعه بترك البنسيون الذي نزل فيه ، والعدول عن التزوج بسهام، والعودة فورا الى البيت ·

ولكن سامح لم يضعف ، ولميسلم، كان يقاوم ويرفض · كان ، وقد تأثر بما حدث وهاله ان تطلق عنايات

بسببه ، يمعن فى التشبث بموقفه ، ويأمر شقيقه بالعودة الى امرأته، ويثنى عليها ، ويطرى خلالها ، ويحمل على اخلاق صفوت ، ويبرىء عنايات من كل عيب وذنب ٠

وكما كان يصر على وجوب عودة اخيه الى زوجته ، كذلك كان يصر هو على استمساكه بحريته ، وعلى حقه فى الحياة واعتزامه ان يقترن وشيكا بسهام ٠٠

وتحطمت محاولات صفوت وأفانين مكره على صخرة عناد اخيه ٠ يئس من امكان الفوز بالمال ٠ فملأ الغيظ قلبه ، ونهش الكمد صدره وتحولت ثورته الى امرأته ، فأبى أن يذهب اليها، أو يتصل بها ، أو يرى ابنته الوحيدة التى كان لا يعطف فى العالم على أحد غيرها ٠

وبدأ يدفن همه فى الأكل ، ويعيش فى البيت وحيدا شريدا تائها ، تلفه العزلة ، وتكتنفه الجهامة ، ويسحقه الضيق والضجر والكمد ٠

وانقضى شهر بطوله وهو يتقلب فى هذه الوحشة الخانقة ، هذه الوحشة التى لم يألفها ، والتى لا تتفق وعاداته وميوله ، والتى ناءت عليه بغتة كحمل ثقيل أو هم وبيل لم يكن قط فى حسبانه فحاول ان يفر من تلك الوحشة باللهو والسهر فلم يفلح ٠ وحاول ان يتغلب عليها بفكرة الزواج من امرأة أخرى ، فلم يستقر أيضا ولم يهدأ ٠

كان فكره لايطاوعه، وقلبه لايعاونه، وارادته لا تستجيب اليه ٠ كان ضميره يهمس فى اعماق روحه البليدة الكثيفة همسا دائبا متقطعا خفيا ، ان امرأته صادقة ونزيهة ، وان الذنب ذنبه هو لا ذنبها ، وانه هو المسؤول عن كل ما وقع لا هى ٠٠

وكما يحدث فى نفوس الضعاف الغلاظ المستمتعين ، العاجزين عن الصبر على الألم ، التواقين الى الراحة والمرح ، النزاعين الى الحركة السهلة والحياة اللينة، لم يستطع صفوت احتمال عزلته وجهامته ووحشته ٠ فتمنى ان يتحول ، وأراد أن يتحول ٠ فلم يعد يجد بأسا فى الاعتقاد بأنه بالفعل قد تحول ، وانه هو المذنب حقا ٠ ذلك لأن

قلبه وجسمه وكل ما فيه كان يصبو الى التمتع بامرأته ، وبجو الراحة والأمن والأئتناس الذى اعتاد ان يحس به منبعثا منها ، منتشرا فى البيت حول انوثتها ووجودها ..

ولم تكد هذه الصورة الحلوة تندس فى خياله وتتمكن منه ، حتى ارتد من فوره الى طبيعته وتنفس .. لمعت عيناه، وأبرقت اساريره ، وعادت الابتسامة العابثة المستهترة فازدهرت فى غبطة وفرح على شفتيه ..

وفى ذات مساء ، حزم أمره ، وقام فحلق ذقنه ، ونسق شعره ، وارتدى أجمل أثوابه وتعطر ، ثم خرج .

وقبل ان يستقل الترام ، عرج على محل حلوانى ، واشترى علبة متواضعة من الفواكه المسكرة ، وملفا صغيرا من الشوكولاته ، ثم توكل على الله وقصد الى بيت حميه ..

ودخل على امرأته ، مشرق الطلعة ، بريء النظرة ، ضاحك السن ، كأنه كان منذ لحظة معها ، وكأن لم يحدث بينهما أى شيء ..

ودهشت عنايات وتحفظت . وقابل جميع افراد العائلة ، ثم داعب حماته أبوها وأمها واخوها تصرف صفوت بالسرور والارتياح وان كانوا قد التزموا هم ايضا جانب التحفظ ، وبدت عليهم امارات الفتور . فلكى يحل صفوت عقدة تحفظهم ، ويبدد فتورهم ، ويدهشهم ويبهرهم ، لم يسرع بمصالحة امرأته ، ولم يعتذر اليها ، ولم يشر ولو من طرف خفى الى حدوث اى نزاع بينهما ، بل اسرع وقدم اليها علبة الفواكه المسكرة ، ثم اجترأ وعانقها فى حرارة وقبلها ، ثم استفسر عن صحة جميع أفراد العائلة ثم داعب حماته العابسة ومازحها، وطفق ينثر المجاملات الرقيقة والدعابات اللطيفة والنكت المستملحة ، وهو يحتضن ابنته ويهدهدها ، ويدس فى يدها ملف الشوكولاته ، ضاحكا لنكته ، متباهيا متفائلا مستبشرا ..

وأذهلت الكل هذه الروح البسيطة الطيبة السمحة وطمأنتهم . فانتعش جو البيت ، وانتعش صفوت نفسه بهذا الجو . فأمعن فى القفش والتنكيت . فانتشر المرح مجلجلا . فابتسمت الحماة بالرغم منها ، وقهقه زوجها ، وكاد ابنه يستلقى على ظهره من فرط الضحك .

اما عنايات فقد ظلت ثابتة متحفظة، ولكنها ما لبثت ان ابتسمت مكرهة ، ثم ضحكت ، ثم لم تستطع حيال طوفان النكت ان تضبط نفسها فمضت تقهقه هى الأخرى .

ولما اطمأن صفوت الى أن الجو قد صفا ، عرض فى لباقة على امرأته ان يعود بها الى البيت . ولكن عنايات التى ارادت ان تمتحنه وان تستوثق مما اذا كان قد طالع الرسالة بامعان وتدبر واصبح وفى عزمه ان يغير حقا من طباعه واخلاقه ، رمته بنظرة متأبية صارمة أدرك هو معناها ولكنه تجاهلها واغضى عنها . فانثنت اليه وقالت له انها لن تعود الى بيته الآن ، وانها فى حاجة الى التفكير والترفيه عن نفسها فى جو أسرتها . ثم اذنت له ان يسهر الليلة معهم وان يزورهم ايضا وفى أى وقت شاء .

وابتهج أهلها بقضاء السهرة فى صحبة صفوت المرح الطروب. فاستبقوه ملحين متشبثين . فما كان منه الا ان نهض مسرعا ، ونضا عنه بعض ثيابه ومال الى حجرة النوم فاختطف من

الشماعة احدى جلاليب حميه ، وارتدى الجلابية وخرج عليهم ..

وكانت الجلابية ضيقة وقصيرة . فانحشر فيها صدره المكتنز ، وبرز منها كرشه المتكور ، وبدت من تحتها ساقاه عاريتين ملبدتين بالشعر . فضج الجميع واغرقوا فى الضحك . فأجال صفوت البصر فيهم وهو يضحك مثلهم ويتواثب كأنه يرقص . ثم راق له بغتة ان يدهشهم ايضا ، وأن يبهرهم ، وأن يضاعف سروره وسرورهم بهذه الليلة السعيدة الشائقة. فاندفع نحو سترته، واخرج منها حافظة نقوده . ثم نادى الخادم فى صوت معتز جهير ، وناولها فى شجاعة جنيهين كاملين ، وأمرها بأن تذهب وتشترى كيلوين من لحم الضأن الـ « ملبس » بالليه ، وعشرة أرغفة وكثيرا من البقدونس والطماطم والخيار ..وما كادت الخادم تختفى حتى أسرع هو الى المطبخ ، وأشعل وابور الغاز ، ثم ثبت فوقه المشواة ثم حمل الوابور الى غرفة الصالون، ووضعه على الأرض، وتربع تجاهه ، واشار الى الجميع بأن يتربعوا حوله ، وجعل يفرك يديه ويبتسم .. ولما عادت الخادم أمرها بان تغسل البقدونس ، وتعد طبقا من السلاطة المتقنة . ثم تناول منها اللحم، وقلبه لحظة ، وتفحصه ، ورضى عنه ، ثم بدأ يرص الشرائح فى دقة على المشواة، ورأسه يهتز، وعيناه المتلهفتان تلمعان ..

وتصاعدت فى الجو رائحة الشواء . وعادت الخادم تحمل صينية فيها السلاطة والبقدونس والخبز ، فتقاطر الجميع على صفوت وهم يتدافعون ويتصايحون . فاستمهلهم فلم يمهلوه . فجعل يلتقط بأصابعه قطع اللحم المشوية ويدس كل قطعة فى شطيرة من الخبز ، ويقدمها مبتهجا لأقرب يد ممتدة اليه متهافتة عليه .. واختص نفسه بالقطع الكبيرة، وشرع ينهشها فى نهم ، ويمضغها فى شغف ، ويستمرئها فى نشوة ، وعنايات التى لم يستخفها كل ما كان يجرى حولها ، تتأمل صفوت ، وترى شراهته المستفحلة ، وغلطته ومكره وسخاءه الغشاش ، ماثلة فى عينيه ، وفى فكيه، وفى شفتيه ، وفى اسنانه الوطيدة التى تطحن الطعام طحنا وتبتلعه كأنها تختزن ثروة عزيزة وتطمرها ..

وعاودها شعور التقزز ، وظلت تنعم النظر فى الرجل ..

ايقنت انه لم يتغير ولن يتغير ... وعندما تحول اليها وابتسم لها، وناولها قطعة الخبز الدافئة ، لم تنظر اليه بل نظرت الى قطعة الخبز وما فيها.. نظرت الى اللحم .. الى شريحة اللحم المشوية المتألقة النضاحة بالدهن ، وانجابت عن ذهنها السحب فجأة وادركت ..

ادركت ان هذا اللحم هو الخمر ، هو النسيان ، هو الخلاص.. وانها اذا أرادت أن تعيش مع هذا الرجل ، وتنسى الى الأبد قلبها ، وحبها ، وآمالها ، فعليها ان تضحك ، وان تمرح ، وان تحب هذا اللحم.. هذا اللحم الذى كان يثير حتى اللحظة تقززها واستنكارها ..

وأدنت القطعة من فمها، وعضت عليها بأسنانها . فوجدت لها طعما لذيذا جديدا . فأحست على دهش منها ، أحست وهى مأخوذة ومبهوتة ، ان اللحم قد اختطفها ، وان عبير الشواء قد احتواها ، وان الدموع التى كانت تتحير فى عينيها ، ترتد فجأة وتتبدد، وتؤثر ان تموت فى قلبها على ان تنحدر على خديها ..